وقد سبق لنا الكلام على صفة العلم، وأن علم الله يتعلق بكل شيء، حتى بالواجب والمستحيل، والصغير والكبير، والظاهر والخفي.

**الآية الثالثة**: قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

* الخطاب لأبي بكر من النبي ﷺ؛ قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠]:

* **أولاً**: نصره حين الإخراج و﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

* **ثانياً**: وعند المكث في الغار ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾.

* **ثالثاً**: عند الشدة حينما وقف المشركون على فم الغار: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾.

فهذه ثلاثة مواقع بيَّن الله تعالى فيها نصره لنبيه ﷺ.

وهذا الثالث حين وقف المشركون عليهم؛ يقول أبو بكر: «يا رسول الله! لو نظر أحدهم إلى قدمه؛ لأبصرنا»[1]؛ يعني: إننا على خطر؛ كقول أصحاب موسى لما وصلوا إلى البحر: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، فقال: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وهنا قال النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾. فطمأنه، وأدخل الأمن في نفسه، وعلل ذلك بقوله:

---

(١) رواه: البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١)؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

* وقوله هنا: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾: نهي يشمل الهم مما وقع وما سيقع؛ فهو صالح للماضي والمستقبل.

والحزن: تألم النفس وشدة همها.

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾: وهذه المعية خاصة، مقيدة بالنبي ﷺ وأبي بكر، وتقتضي مع الإحاطة التي هي المعية العامة النصر والتأييد.

ولهذا وقفت قريش على الغار، ولم يبصروهما! أعمى الله أبصارهم.

وأما قول من قال: فجاءت العنكبوت فنسجت على باب الغار، والحمامة وقعت على باب الغار، فلما جاء المشركون، وإذا على الغار حمامة وعشّ عنكبوت، فقالوا: ليس فيه أحد؛ فانصرِفوا[1]. فهذا باطل!!

الحماية الإلهية والآية البالغة أن يكون الغار مفتوحاً صافياً، ليس فيه مانع حسي، ومع ذلك لا يرون من فيه، هذه هي الآية!! أما أن تأتي حمامة وعنكبوت تعشش؛ فهذا بعيد، وخلاف قوله: «لو نظر أحدهم إلى قدمه؛ لأبصرنا».

---

(١) نسبه الهيثمي في «المجمع» (٦/٥٣) للبزار والطبراني وقال: «وفيه جماعة لا أعرفهم»، ورواه ابن سعد في «الطبقات» (١/٢٢٩)، وانظر «الضعيفة» للألباني (١١٢٨) فقد ضعّفه.

المهم أن بعض المؤرخين ـ عفا الله عنهم ـ يأتون بأشياء غريبة شاذة منكرة لا يقبلها العقل ولا يصح بها النقل.

**الآية الرابعة**: قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

* هذا الخطاب لموسى وهارون، لما أمرهما الله عز وجل أن يذهبا إلى فرعون؛ قال: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ * قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٣ ـ ٤٦].

* فقوله: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾: جملة استئنافية لبيان مقتضى هذه المعية الخاصة، وهو السمع والرؤية، وهذا سمع ورؤية خاصان تقتضيان النصر والتأييد والحماية من فرعون الذي قالا عنه: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾.

**الآية الخامسة**: قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

هذه جاءت بعد قوله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ * وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٦ ـ ١٢٧].

عقوبة الجاني بمثل ما عُوقِبَ به من باب التقوى، وبأكثر ظلم وعدوان، والعفو إحسان، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾.

والمعية هنا خاصة مقيدة بصفة: كل من كان من المتقين

المحسنين؛ فالله معه.

وهذا يثمر لنا بالنسبة للحالة المسلكية: الحرص على الإحسان والتقوى؛ فإن كل إنسان يحب أن يكون الله معه.

**الآية السادسة**: قوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]:

سبق لنا أن الصبر حبس النفس على طاعة الله، وحبسها عن معصية الله، وحبسها عن التسخط على أقدار الله؛ سواء باللسان أو بالقلب أو بالجوارح.

وأفضل أنواع الصبر: الصبر على طاعة الله، ثم عن معصية الله لأن فيهما اختياراً: إن شاء الإنسان فعل المأمور، وإن شاء لم يفعل، وإن شاء ترك المحرم وإن شاء ما تركه، ثم على أقدار الله؛ لأن أقدار الله واقعة شئت أم أبيت؛ فإما أن تصبر صبر الكرام وإما أن تسلو سلو البهائم.

والصبر درجة عالية لا تنال إلا بشيء يصبر عليه، أما من فرشت له الأرض ورداً، وصار الناس ينظرون إلى ما يريد؛ فإنه لا بد أن يناله شيء من التعب النفسي أو البدني الداخلي أو الخارجي.

ولهذا جمع الله لنبيه عليه الصلاة والسلام بين الشكر والصبر.

فالشكر؛ كان يقوم حتى تتورم قدماه، فيقول: «أفلا أكون

عبداً شكوراً؟»[1].

والصبر: صبر على ما أُوذي؛ فقد أُوذي من قومه ومن غيرهم من اليهود والمنافقين، ومع ذلك؛ فهو صابر.

**الآية السابعة**: قوله: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

* ﴿كَم﴾: خبرية، تفيد التكثير؛ يعني: فئة قليلة غلبت فئة كثيرة عدة مرات، أو فئات قليلة متعددة غلبت فئات كثيرة متعددة، لكن لا بحولهم ولا بقوتهم، بل بإذن الله، أي: بإرادته وقدرته.

ومن ذلك: أصحاب طالوت غلبوا عدوهم وكانوا كثيرين.

ومن ذلك: أصحاب بدر غلبوا قريشاً وهم كثيرون.

أصحاب بدر خرجوا لغير قتال، بل لأخذ عير أبي سفيان، وأبو سفيان لما علم بهم؛ أرسل صارخاً إلى أهل مكة يقول: أنقذوا عيركم، محمد وأصحابه خرجوا إلينا يريدون أخذ العير. والعير فيها أرزاق كثيرة لقريش، فخرجت قريش بأشرافها وأعيانها وخيلائها وبطرها، يظهرون القوة والفخر والعزة، حتى قال أبو جهل: والله؛ لا نرجع حتى نقدم بدراً، فنقيم فيها ثلاثاً؛ ننحر الجزور، ونسقي الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب؛

---

(١) تقدم تخريجه وهو في الصحيحين.

فلا يزالون يهابوننا أبداً[1].

فالحمد لله؛ غَنَّوا على قتله هو ومن معه!

كان هؤلاء القوم ما بين تسعمائة وألف، كل يوم ينحرون من الإبل تسعاً إلى عشر، والنبي عليه الصلاة والسلام هو وأصحابه ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً[2]، معهم سبعون بعيراً وفرسان فقط يتعاقبونها، ومع ذلك قتلوا الصناديد العظماء لقريش حتى جيفوا وانتفخوا من الشمس وسحبوا إلى قليب من قلب بدر خبيثة.

فـ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾؛ لأن الفئة القليلة صبرت، ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾؛ صبرت كل أنواع الصبر؛ على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى ما أصابها من الجهد والتعب والمشقة في تحمل أعباء الجهاد، ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

انتهت آيات المعية، وسيأتي للمؤلف رحمه الله فصل كامل في تقريرها.

**فما هي الثمرات التي نستفيدها بأن الله معنا؟**

**أولاً**: الإيمان بإحاطة الله عز وجل بكل شيء، وأنه مع علوه

---

(١) رواه ابن جرير الطبري (٦/ ٢٦٢)؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه سعيد بن منصور من مرسل أبي اليمان عامر الهوزني، ووصله الطبراني والبيهقي من وجه آخر عن أبي أيوب الأنصاري؛ كما قال الحافظ في «الفتح» (٧/ ٢٩١).

فهو مع خلقه، لا يغيب عنه شيء من أحوالهم أبداً.

**ثانياً**: أننا إذا علمنا ذلك وآمنا به؛ فإن ذلك يوجب لنا كمال مراقبته بالقيام بطاعته وترك معصيته؛ بحيث لا يفقدنا حيث أمرنا، ولا يجدنا حيث نهانا، وهذه ثمرة عظيمة لمن آمن بهذه المعية.

* * *

● **إثبات الكلام لله تعالى:**

**الشرح:**

ذكر المؤلف رحمه الله الآيات الدالة على كلام الله تعالى وأن القرآن من كلامه تعالى.

**الآية الأولى والثانية**: قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

* ﴿وَمَنْ﴾: اسم استفهام بمعنى النفي، وإتيان النفي بصيغة الاستفهام أبلغ من إتيان النفي مجرداً؛ لأنه يكون بالاستفهام مشرباً معنى التحدي؛ كأنه يقول: لا أحد أصدق من الله حديثاً، وإذا كنت تزعم خلاف ذلك؛ فمن أصدق من الله؟

* وقوله: ﴿حَدِيثًا﴾ و﴿قِيلًا﴾: تمييز لـ ﴿أَصْدَقُ﴾.

وإثبات الكلام في هاتين الآيتين يؤخذ من: قوله: ﴿أَصْدَقُ﴾؛ لأن الصدق يوصف به الكلام، وقوله: ﴿حَدِيثًا﴾؛ لأن الحديث هو الكلام، ومن قوله في الآية الثانية. ﴿قِيلًا﴾؛ يعني: قولاً، والقول لا يكون إلا باللفظ.

ففيهما إثبات الكلام لله عز وجل، وأن كلامه حق وصدق، ليس فيه كذب بوجه من الوجوه.

**الآية الثالثة**: قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦].

* قوله: ﴿يَٰعِيسَى﴾: مقول القول، وهي جملة من حروف: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾.

ففي هذا إثبات أن الله يقول، وأن قوله مسموع، فيكون بصوت، وأن قوله كلمات وجمل، فيكون بحرف.

ولهذا كانت عقيدة أهل السنة والجماعة: أن الله يتكلم بكلام حقيقي متى شاء، كيف شاء، بما شاء، بحرفٍ وصوتٍ، لا يماثل أصوات المخلوقين.

«**متى شاء**»: باعتبار الزمن.

«**بما شاء**»: باعتبار الكلام؛ يعني: موضوع الكلام من أمرٍ أو نهيٍ أو غير ذلك.

«**كيف شاء**»؛ يعني على الكيفية والصفة التي يريدها سبحانه وتعالى.

قلنا: إنه بحرفٍ وصوتٍ لا يشبه أصوات المخلوقين.

الدليل على هذا من الآية الكريمة ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: هذا حروف.

وبصوت؛ لأن عيسى يسمع ما قال.

لا يماثل أصوات المخلوقين؛ لأن الله قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

**الآية الرابعة**: قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ﴾ [الأنعام: ١١٥].

* ﴿كَلِمَتُ﴾؛ بالإفراد، وفي قراءة (كلمات)؛ بالجمع، ومعناها واحد؛ لأن ﴿كَلِمَتُ﴾ مفرد مضاف فيعم.

تمت كلمات الله عز وجل على هذين الوصفين: الصدق والعدل، والذي يوصف بالصدق الخبر، والذي يوصف بالعدل الحكم، ولهذا قال المفسرون[1]: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام.

فكلمات الله عز وجل في الأخبار صدق لا يعتريها الكذب بوجهٍ من الوجوه، وفي الأحكام عدل لا جور فيها بوجه من الوجوه.

هنا وصفت الكلمات بالصدق والعدل. إذاً؛ فهي أقوال؛ لأن القول هو الذي يقال فيه: كاذب أو صادق.

**الآية الخامسة**: قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٦٩).

* ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل؛ فالكلام واقع منه.

* ﴿تَكْلِيمًا﴾: مصدر مؤكِّد، والمصدر المؤكِّد ـ بكسر الكاف ـ؛ قال العلماء: إنه ينفي احتمال المجاز. فدل على أنه كلام حقيقي؛ لأن المصدر المؤكد ينفي احتمال المجاز.

أرأيت لو قلت: جاء زيد. فيفهم أنه جاء هو نفسه، ويحتمل أن يكون المعنى: جاء خبر زيد، وإن كان خلاف الظاهر، لكن إذا أكدت فقلت: جاء زيد نفسه. أو: جاء زَيْدٌ زيدٌ. انتفى احتمال المجاز.

فكلام الله عز وجل لموسى كلام حقيقي بحرف وصوت سمعه، ولهذا جرت بينهما محاورة؛ كما في سورة طه وغيرها.

**الآية السادسة**: قوله: ﴿مِنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

* ﴿مِنْهُم﴾؛ أي: من الرسل.

* ﴿مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾: الاسم الكريم ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل كلّم، ومفعولها محذوف يعود على ﴿مَّن﴾، والتقدير: كلمه الله.

**الآية السابعة**: قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

* أفادت هذه الآية أن الكلام يتعلق بمشيئته، وذلك لأن الكلام صار حين المجيء، لا سابقاً عليه، فدل هذا على أن كلامه يتعلق بمشيئته.

فيبطل به قول من قال: إن كلامه هو المعنى القائم بالنفس،

وإنه لا يتعلق بمشيئته؛ كما تقوله الأشاعرة.

* وفي هذه الآية إبطال زعم من زعم أن موسى فقط هو الذي كلم الله، وحرف قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ إلى نصب الاسم الكريم؛ لأنه في هذه الآية لا يمكنه زعم ذلك ولا تحريفها.

**الآية الثامنة**: قوله: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢].

* ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾: ضمير الفاعل يعود إلى الله، وضمير المفعول يعود إلى موسى؛ أي: نادى الله موسى.

* و﴿نَجِيّٗا﴾: حال، وهو فعيل بمعنى مفعول؛ أي: مناجى.

والفرق بين المناداة والمناجاة أن المناداة تكون للبعيد والمناجاة تكون للقريب وكلاهما كلام.

وكون الله عز وجل يتكلم مناداة ومناجاة داخل في قول السلف: «كيف شاء».

فهذه الآية مما يدل على أن الله يتكلم كيف شاء مناداة كان الكلام أو مناجاة.

**الآية التاسعة**: قوله: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠].

* ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ﴾؛ يعني: واذكر إذ نادى.

* والشاهد قوله: ﴿رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾: فسر النداء بقوله: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فالنداء يدل على أنه بصوت، و﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: يدل على أنه بحرف.

**الآية العاشرة**: قوله: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

* ﴿وَنَادَىٰهُمَا﴾: ضمير المفعول به يعود على آدم وحواء.

* ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾: يقرر أنه نهاهما عن تلكما الشجرة، وهذا يدل على أن الله كلمهما من قبل، وأن كلام الله بصوتٍ وحرفٍ، ويدل على أنه يتعلق بمشيئته؛ لقوله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾؛ فإن هذا القول بعد النهي، فيكون متعلقاً بالمشيئة.

**الآية الحادية عشرة**: قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

يعني: واذكر يوم يناديهم، وذلك يوم القيامة، والمنادي هو الله عز وجل: ﴿فَيَقُولُ﴾.

وفي هذه الآية إثبات الكلام من وجهين: النداء والقول.

وهذه الآيات تدل بمجموعها على أن الله يتكلم بكلام حقيقي، متى شاء، بما شاء، كيف شاء، بحرف وصوت مسموع، لا يماثل أصوات المخلوقين.

وهذه هي العقيدة السلفية عقيدة أهل السنة والجماعة.

● **إثبات أن القرآن كلام الله:**

**الشرح:**

ثم ذكر المؤلف رحمه الله الآيات الدالة على أن القرآن كلام الله.

وهذه المسألة وقع فيها النزاع الكثير بين المعتزلة وأهل السنة، وحصل بها شرٌّ كثير على أهل السنة، وممن أُوذي في الله في ذلك الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إمام أهل السنة، الذي قال فيه بعض العلماء: «إن الله سبحانه وتعالى حفظ الإسلام (أو قال: نصره) بأبي بكر يوم الردة، وبالإمام أحمد يوم المحنة»[1].

والمحنة: هو أن المأمون عفا الله عنا وعنه أجبر الناس على أن يقولوا بخلق القرآن، حتى إنه صار يمتحن العلماء ويقتلهم إذا لم يجيبوا، وأكثر العلماء رأوا أنهم في فسحة من الأمر، وصاروا يتأولون:

- إما بأن الحال حال إكراه، والمكره إذا قال الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان؛ فإنه معفو عنه.

- وإما بتنزيل اللفظ على غير ظاهره؛ يتأولون، فيقولون مثلاً: القرآن والتوراة والإنجيل والزبور؛ هذه مخلوقة. وهو يتأول أصابعه.

---

(١) قاله علي بن المديني، فيما رواه عنه الحافظ عبد الغني المقدسي في كتابه «محنة الإمام أحمد بن حنبل» (ج٣١)، وانظر: «سير أعلام النبلاء» (١١/ ١٩٦).

أما الإمام أحمد ومحمد بن نوح رحمهما الله؛ فأبيا ذلك، وقالا: القرآن كلام الله منزل غير مخلوق. ورأيا أن الإكراه في هذا المقام لا يسوغ لهما أن يقولا خلاف الحق؛ لأن المقام مقام جهاد، والإكراه يقتضي العفو إذا كانت المسألة شخصية؛ بمعنى: أن تكون على الشخص نفسه. أما إذا كانت المسألة لحفظ شريعة الله؛ فالواجب أن يتبرع الإنسان برقبته لحفظ شريعة الله عز وجل.

لو قال الإمام أحمد في ذلك الوقت: إن القرآن مخلوق، ولو بتأويل أو لدفع الإكراه؛ لقال الناس كلهم: القرآن مخلوق! وحينئذٍ يتغير المجتمع الإسلامي من أجل دفع الإكراه، لكنه صمم، فصارت العاقبة له، ولله الحمد.

المهم أن القول في القرآن جزء من القول في كلام الله على العموم، لكن لما وقعت فيه المحنة، وصار محك النزاع بين المعتزلة وأهل السنة؛ صار الناس يفردون القول في القرآن بكلامٍ خاصٍّ.

والمؤلف رحمه الله من الآن ساق الآيات الدالة على أن القرآن كلام الله في آيات متعددة.

**الآية الأولى**: قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]:

* ﴿أَحَدٌ﴾: هذه اسم، و(إن): أداة الشرط، والاسم إذا ولي أداة الشرط؛ فقد ولي أداة لا يليها إلا الفعل، فاختلف النحويون في هذا:

فقال بعضهم: إنه فاعل لفعل محذوف يفسره ما بعده، وعليه يكون ﴿أَحَدٌ﴾ فاعل لفعل محذوف، والتقدير: وإن استجارك أحد من المشركين؛ فأجره، ومثلها: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]؛ فـ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾: فاعل لفعلٍ محذوف، والتقدير: إذا انشقت السماء.

القول الثاني: وهو قول الكوفيين وهم في الغالب أسهل من البصريين: أن ﴿أَحَدٌ﴾ فاعل مقدم، والفعل (استجار) مؤخر، ولا حاجة للتقدير.

والقول الثالث: أن ورود الأسماء بعد أدوات الشرط في القرآن كثيراً يدل على عدم امتناعه، وعلى هذا القول يكون الاسم الواقع بعد أداة الشرط مبتدأ إذا كان مرفوعاً، فيكون ﴿أَحَدٌ﴾: مبتدأ، و﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾: خبر المبتدأ.

والقاعدة عندي أن ما كان أسهل من أقوال النحويين؛ فهو المتبع، حيث لا مانع شرعاً من ذلك.

* قوله: ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾؛ أي: طلب جوارك، والجوار: بمعنى العصمة والحماية.

* ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ﴾: ﴿حَتَّىٰ﴾: للغاية؛ والمعنى: إن أحد استجارك ليسمع كلام الله؛ فأجره حتى يسمع كلام الله؛ أي: القرآن، وهذا بالاتفاق.

وإنما قال: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن سماع كلام الله عز وجل مؤثر ولا بد كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ

قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [قّ: ٣٧]، وكم من إنسان سمع كلام الله فآمن، لكن بشرط أن يكون يفهمه تماماً.

* وقوله: ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾: أضاف الكلام إلى نفسه، فقال: ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، فدل هذا على أن القرآن كلام الله، وهو كذلك.

* وعقيدة أهل السنة والجماعة في القرآن؛ يقولون: إن القرآن كلام الله، منزل، غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود.

- قولهم: «**كلام الله**»: دليله: قوله تعالى هنا: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وبما يأتي من الآيات:

- وقولهم: «مُنَزَّل»: دليله: قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وقوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

- وقولهم: «غير مخلوق»: دليله: قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ فجعل الخلق شيئاً، والأمر شيئاً آخر؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، والقرآن من الأمر؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ فإذا كان القرآن أمراً، وهو قسيم للخلق؛ صار غير مخلوق؛ لأنه لو كان مخلوقاً؛ ما صح التقسيم. وهذا دليل سمعي.

أما الدليل العقلي؛ فنقول: القرآن كلام الله، والكلام ليس

عيناً قائمة بنفسها حتى يكون بائناً من الله، ولو كان عيناً قائمة بنفسها بائنة من الله؛ لقلنا: إنه مخلوق، لكن الكلام صفة للمتكلم به، فإذا كان صفة للمتكلم به، وكان من الله؛ كان غير مخلوق؛ لأن صفات الله عز وجل كلها غير مخلوقة.

وأيضاً؛ لو كان مخلوقاً؛ لبطل مدلول الأمر والنهي والخبر والاستخبار؛ لأن هذه الصيغ لو كانت مخلوقة؛ لكانت مجرد أشكال خلقت على هذه الصورة لا دلالة لها على معناها؛ كما يكون شكل النجوم والشمس والقمر ونحوها.

ـ وقولهم: «منه بدأ»؛ أي: هو الذي ابتدأ به، وتكلم به أولاً.

والقرآن أُضيف إلى الله، وإلى جبريل، وإلى محمد ﷺ:

مثال الأول: قول الله عز وجل: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فيكون منه بدأ؛ أي: من الله جل جلاله، ومنه: حرف جر وضمير قدم على عامله لفائدة الحصر والاختصاص.

ومثال الثاني ـ إضافته إلى جبريل ـ: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢٠].

ومثال الثالث ـ إضافته إلى محمد عليه الصلاة والسلام ـ: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة: ٤٠ ـ ٤١]، لكن أُضيف إليهما لأنهما يبلغانه، لا لأنهما ابتدأاه.

ـ وقولهم: «**وإليه يعود**»: في معناه وجهان:

**الأول**: أنه كما جاء في بعض الآثار: يسرى عليه في ليلة، فيصبح الناس ليس بين أيديهم قرآن؛ لا في صدورهم، ولا في مصاحفهم، يرفعه الله عز وجل[1].

وهذا ـ والله أعلم ـ حينما يعرض عنه الناس إعراضاً كليّاً؛ لا يتلونه لفظاً ولا عقيدة ولا عملاً؛ فإنه يرفع؛ لأن القرآن أشرف من أن يبقى بين يدي أُناس هجروه وأعرضوا عنه فلا يقدرونه قدره، وهذا ـ والله أعلم ـ نظير هدم الكعبة في آخر الزمان[2]؛ حيث يأتي رجل من الحبشة قصير أفحج أسود، يأتي بجنوده من البحر إلى المسجد الحرام، وينقض الكعبة حجراً حجراً، كلما نقض حجراً؛ مده للذي يليه... وهكذا يتمادون الأحجار إلى أن يرموها في البحر، والله عز وجل يمكنهم من ذلك، مع أن أبرهة جاء بخيله

---

(١) لما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «لينزعن القرآن من بين أظهركم، يسري عليه ليلاً فيذهب من أجواف الرجال، فلا يبقى في الأرض منه شيء»، ورواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير شداد بن معقل وهو ثقة. كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٣٠)، وقال ابن حجر سنده صحيح لكنه موقوف «فتح الباري» (١٣/ ١٦)، وقد صح مرفوعاً نحوه من حديث حذيفة، رواه ابن ماجه وقوى إسناده الحافظ في «الفتح» (١٣/ ١٦)، وانظر «الصحيحة» للألباني (٨٧).

(٢) لما رواه الإمام أحمد (٢/ ٢٢٠) عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة، ويسلبها حليتها ويجردها من كسوتها، ولكأني أنظر إليه أصيلع أفيدع يضرب عليها بمداته ومهوله»، وعند البخاري (١٥٩١)، ومسلم (٢٩٠٩)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة»، وانظر كتاب «أشراط الساعة» للشيخ يوسف الوابل (ص٢٣١).

ورجله وفيله فقصمه الله قبل أن يصل إلى المسجد؛ لأن الله علم أنه سيبعث هذا النبي، وتعاد إلى المسجد هيبته وعظمته، ولكن في آخر الزمان لن يبعث نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام، وإذا أعرض الناس عن تعظيم هذا البيت نهائيّاً؛ فإنه يسلط عليه هذا الرجل من الحبشة؛ فهذا نظير رفع القرآن. والله أعلم.

**الوجه الثاني**: في معنى قولهم: «وإليه يعود»: أنه يعود إلى الله وصفاً؛ أي أنه لا يوصف به أحد سوى الله فيكون المتكلم بالقرآن هو الله عز وجل، وهو الموصوف به.

ولا مانع من أن نقول: إن المعنيين كلاهما صحيح.

هذا كلام أهل السنة والجماعة في القرآن الكريم.

* ويرى المعتزلة أن القرآن مخلوق، وليس كلام الله!

ويستدلون لذلك بقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، والقرآن شيء، فيدخل في عموم قوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾، ولأنه ما ثَمَّ إلا خالق ومخلوق، والله خالق، وما سواه مخلوق.

* والجواب من وجهين:

**الأول**: أن القرآن كلام الله تعالى، وهو صفة من صفات الله، وصفات الخالق غير مخلوقة.

**الثاني**: أن مثل هذا التعبير ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ عام قد يراد به الخاص؛ مثل قوله تعالى عن ملكة سبأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾

[النمل: ٢٣]، وقد خرج شيء كثير لم يدخل في ملكها منه شيء؛ مثل ملك سليمان.

* فإن قال قائل: هل هناك فرق كبير بين قولنا: إنه منزل، وقولنا: إنه مخلوق؟

فالجواب: نعم؛ بينهما فرق كبير، جرت بسببه المحنة الكبرى في عصر الإمام أحمد.

فإذا قلنا: إنه مُنَزَّل. فهذا ما جاء به القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١].

وإذا قلنا: إنه مخلوق. لزم من ذلك:

**أولاً**: تكذيب للقرآن؛ لأن الله يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فجعله الله تعالى موحى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، ولو كان مخلوقاً؛ ما صح أن يكون موحى؛ فإذا كان وحياً؛ لزم ألا يكون مخلوقاً؛ لأن الله هو الذي تكلم به.

**ثانياً**: إذا قلنا: إنه مخلوق؛ فإنه يلزم على ذلك إبطال مدلول الأمر والنهي والخبر والاستخبار؛ لأن هذه الصيغ لو كانت مخلوقة؛ لكانت مجرد شكل خلق على هذه الصورة؛ كما خلقت الشمس على صورتها، والقمر على صورته، والنجم على صورته... وهكذا، ولم تكن أمراً ولا نهياً ولا خبراً ولا استخباراً؛ فمثلاً: كلمة (قل) (لا تقل) (قال فلان) (هل قال فلان) كلها نقوش على هذه الصورة، فتبطل دلالتها على الأمر والنهي

والخبر والاستخبار، وتبقى كأنها صور ونقوش لا تفيد شيئاً.

ولهذا قال ابن القيم في «النونية»: «إن هذا القول يبطل به الأمر والنهي؛ لأن الأمر كأنه شيء خلق على هذه الصورة دون أن يعتبر مدلوله، والنهي خلق على هذه الصورة دون أن يقصد مدلوله، وكذلك الخبر والاستخبار».

**ثالثاً**: إذا قلنا: إن القرآن مخلوق، وقد أضافه إلى نفسه إضافة خلق؛ صح أن نطلق على كل كلام من البشر وغيرهم أنه كلام الله؛ لأن كل كلام الخلق مخلوق، وبهذا التزم أهل الحلول والاتحاد؛ حيث يقول قائلهم:

وَكُلُّ كَلامٍ فِي الوُجودِ كَلامُهُ سَـوَاءٌ عَلَيْنـا نَثْـرُهُ وَنِظـامُـهُ[1]

وهذا اللازم باطل، وإذا بطل اللازم بطل الملزوم.

فهذه ثلاثة أوجه تبطل القول بأنه مخلوق.

**والوجه الرابع**: أن نقول: إذا جوَّزتم أن يكون الكلام ـ وهو معنى لا يقوم إلا بمتكلم ـ مخلوقاً؛ لزمكم أن تجوِّزوا أن تكون جميع صفات الله مخلوقة؛ إذ لا فرق؛ فقولوا إذاً: سمعه مخلوق، وبصره مخلوق... وهكذا.

فإن أبيتم إلا أن تقولوا: إن السمع معنىً قائم بالسامع لا

---

(١) البيت لابن عربي، وقد ذكره في كتابه «الفتوحات المكية» (٤/ ١٤١)، انظر: «منهاج السنة» لشيخ الإسلام (٢/ ٣٧٣).

يسمع منه ولا يرى، بخلاف الكلام؛ فإنه جائز أن الله يخلق أصواتاً في الهواء فتسمع!!

قلنا لكم: لو خلق أصواتاً في الهواء، فسمعت؛ لكان المسموع وصفاً للهواء، وهذا أنتم بأنفسكم لا تقولونه؛ فكيف تعيدون الصفة إلى غير موصوفها؟!

هذه وجوه أربعة كلها تدل على أن القول بخلق القرآن باطل، ولو لم يكن منه إلا إبطال الأمر والنهي والخبر والاستخبار؛ لكان ذلك كافياً.

**الآية الثانية**: قوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

* هذا في سياق قوله تعالى: ﴿۞أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾؛ يعني: لا تطمعوا أن يؤمنوا لكم؛ أي: اليهود.

* ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾: طائفة منهم، وهم علماؤهم.

* ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾: يحتمل أن يراد به القرآن، وهو ظاهر صنيع المؤلف، فيكون دليلاً على أن القرآن كلام الله. ويحتمل أن يراد به كلام الله تعالى لموسى حين اختار موسى سبعين رجلاً لميقات الله تعالى، فكلمه الله وهم يسمعون، فحرفوا كلام الله تعالى من بعد ما عقلوه وهم يعلمون. ولم أر الاحتمال الأول لأحد من المفسرين.

وأيّاً كان؛ ففيه إثبات أن كلام الله بصوت مسموع، والكلام